فن الكتابة العربية منذ البداية و تطوره عبر العصور

***شفقت ناهيد**

****محمد سرور ساجد**

ABSTRACT:

Allah Almighty Created many creatures but when he created Humans and gave them mind and feelings so humans felt the need to express his feeling and what is going on his mind about himself about others and about nature so first of all he used lingual and oral mean to express this and secondly Human beings used writing to express their in minds and their feeling and their observations.

In the lines below, we are going to discuss what is meant by writing and how it started and how it developed and in different ages how different Scripts styles were used for writing and how it was used as a mean of communications between kings and states and other peoples.

Opinion are different in the genesis of writing, when it began, and who was the first to invent it, some says that art of writing is given from Allah Almighty, which was brought down on Adam (Peace be upon him) He (Peace be upon him) was the first person who wrote on the soil and after that it was used as the deluge ا and flood sank all the men on the earth except who were on the Boat of Nooh (Peace be upon him) , all the people got their writing.

There are different stages for the development of writing as the first stage of writing was signs and at this stage, man expressed what he wanted to say by drawing, and if he wanted to express the king, he drew a crown, and so on. Like this there are few stages of development till the issuance of proper alphabets and proper way of writing and there are many scripts used for the Arabic which we will discuss in the detail in the below lines.

الكتابة تعني الجمع والشد والتنظيم، والذي يراجع لسان العرب يعثر إلى جانب هذا المعنى على دلالتين أخريين هما: الاتفاق على الحرية؛ فالرجل يكاتب عبده على مال يؤديه منجمًا أي يتفق معه على حريته مقابل مبلغ من المال، ثم القضاء والإلزام والإيجاب والنابغة الجعدي يقول:

يَا بِنْتَ عَمِّي، كِتَابُ اللَّهِ أَخَّرَنِي ... عَنْكُمْ، وَهَلْ أَمْنَعَنَّ كِتَابَ اللَّهِ مَا فَعَلا

* باحثة بمرحلة الدكتوراة ، قسم اللغة العربية ، الجامعة الاسلامية بهاول بور

** باحث بمرحلة الدكتوراة ، قسم اللغة العربية ، الجامعة الاسلامية بهاول بور

كتاب الله –هنا– بمعنى قدر الله سبحانه وتعالى-[1]

والمعنى الاصطلاحي يجمع هذه الدلالات المتنوعة، فالشد والجمع أمر ضروري؛ لأن الكتابة لا تقوم إلا بالصياغة المحكمة، والصياغة في حد ذاتها جمع بين الكلمات وربط لها بعضها ببعض؛ أما معنى الحرية فيتمثل في رغبة الإنسان القائمة في نفسه لتحرير ما بداخله من أفكار ومشاعر وأحاسيس؛ وأما المعنى الثالث الذي يتمثل في الإلزام فالكلمة المكتوبة تلزم صاحبها، وتعتبر شاهدًا على ما قطعه على نفسه[2]

عرف الإنس[3]ان الكتابة من القديم وعمل على تطويرها حتى وصلت إلى هذا الشكل؛ "شعر الإنسان منذ البداية بعجزه عن تذكر الأحداث، والأعداد، والتواريخ، فعمل على تدوينها في صورة ثابتة يمكن الاحتفاظ بها والرجوع إليها كلما دعت الحاجة، فتوصل إلى تحويل الرموز الصوتية –أي اللغة– من رموز سمعية إلى رموز مرئية"(4)

ابتداء و نشأة فن الكتابة:

اختلف في نشأة الكتابة، متى كانت بدايتها، ومن أول من اخترعها، فالبعض يرى أن الكتابة توقيف من الله تعالى، أنزلت على آدم – عليه السلام – في إحدى وعشرين صحيفة (5) ، وقيل: إنّ آدم – عليه السلام – هو من وضعها، كتبها في طين وطبخه، قبل أن يموت بثلاثمائة سنة، ولما

1 ابن منظور، لسان العرب، دار المعارف (د. ت) مادة كتب.

2 فن التحرير العربي ضوابطه وأنماطه محمد صالح الشنطي دار الأندلس للنشر والتوزيع – السعودية / حائل الطبعة : الخامسة 1422 هـ - 2001 م 19

3 د. أحمد شوقي رضوان، ود. عثمان بن صالح الفريح: التحرير العربي، ط3، مطابع جامعة الملك سعود، الرياض 1411هـ،1991م، ص11.

4 القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، ج.3، المؤسسة المصرية للطباعة والنشر، ص23، والنويري، شهاب الدين أحمد بن عبدالوهاب، نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق، أحمد الزين، دار الكتب الصرية، القاهرة 1997، ج.7، ص31.

5 ابن النديم، أبو الفرج محمد بن أبي يعقوب المعروف بالوراق، الفهرست؛ تحقيق: رضا تجدد بن علي بن زين العابدين 1971، ص22، والقلقشندي، صبح الأعشى، ج3، ص6، والأندلسي، أبو عمر أحمد بن محمد بن عبدربه، العقد الفريد؛ تحقيق وشرح: أحمد أمين، أحمد الزين إبراهيم الإبياري، ط.2 بيروت، دار الكتاب العربي، 1962.4م، ج.4، ص156.

كان غرق الطوفان، أصاب كلّ قوم كتابهم [6]، والحقيقة أنّ المعرفة الحقيقة لأصل الكتابة، وكيف كانت نشأتها، ليس بالأمر السهل، لغموض تاريخ تلك الفترات، ولكنّ المطلع على النقوش والآثار، التي خلّفتها الحضارات القديمة، يدركُ أن عملية الكتابة لم تكن توقيفية من الله تعالى، ولم تكن اختراعًا فجائيًّا من وضع أحد بعينه.

وإذا كان الاتفاق على أن الكتابة هي من صنع الإنسان، لا توقيفية من الله تعالى، ولا من وضع آدم – عليه السلام – فهذا يعني أن الكتابة لم تكن بالشكل المتعارف عليه الآن، ولكنّها مرّت بعدة مراحل طويلة عبر التاريخ، وذلك تبعًا لتطور حياة الإنسان، وبيئاته المختلفة، حتى وصلت إلى هي ما عليه في هذا العصر، وتتفق الدراسات على أن ظهور أول كتابتين كان في الشرق الأدنى القديم، وقد قدّم للعالم أول كتابتين هامّتين، وهما الكتابة المسمارية، والكتابة الهيروغليفية في مصر[7]-ويؤكد هانم عبدالرحيم أن البداية الحقيقية للكتابة كانت في بلاد الرافدين، ثم تبعتها مصر بفترة متقاربة؛ حيث يقول: (أنّ الكتابة بدأت في العراق، وهي الكتابة المسمارية، وكانوا يؤكدون على ذلك من خلال تاريخ بعض الألواح الطينية التي وجدت في الحفريات القديمة التي تمَّ العثور عليها بجنوب العراق، وأكدوا أنها ترجع لعهد السومريين. [8]

فأما الأولى وهي:

الكتابة المسمارية: ظهرت في العراق، وعثر عليها من خلال بعض الألواح الطينية التي وجدت في الحفريات القديمة جنوب العراق، وأكدوا أنها ترجع لعهد السومريين[9]-

وأمّا الثانية، الكتابة الهيروغليفية:

ظهرت الكتابة الهيروغليفية في مصر، وتذكر بعض المصادر أنّ المصريين القدماء قد اقتبسوها من السومريين، عن طريق الاختلاط بين الحضارتين[10]، وقد استخدمها المصريون لمدة تزيد على

6 يوهانس، فريدريش، تاريخ الكتابة، ترجمة: سليمان الضاهر، ط.1، منشورات وزارة الثقافة، سورية، 2004.

7 عبدالرحيم، هانم؛ تاريخ الكتابة والمكتبات واوعية المعلومات، الاسكندرية، مركز الإسكندرية للكتاب، 2006، ص6.

8 المصدر نفسه ص6.

9 الموسوعة العربية مجلد 26، ص324، ويوهانس، فدريدرش، تاريخ الكتابة، ص54.

10 الموسوعة العربية، م.26، ص323، يوهانس، فدريدرش، تاريخ الكتابة، ص36-35.

3000سنة، وقد استخدموا تلك الكتابة بشكل رئيس في النقوش الدينية على المعابد والنصب التذكارية الحجرية، ولتسجيل كلمات وأفعال الشخصيات والأسر الملكية[11].

إن الكتابتين، السومرية، والهيروغليفية، تمثلان المراحل التي مرّت بها العملية الكتابية، حتى وصلت إلى الأبجدية المتعارف عليها الآن، وكان الوقت الذي ظهرت فيه الكتابة، نهاية لعصر ما قبل التاريخ المدون، وبداية التاريخ المكتوب وكانت الكتابة في أشكالها البدائية ثم المتطورة المرحلة الفاصلة بين عصور ما قبل التاريخ وبداية التاريخ المدون، وهذه المراحل مختصرة:

1.المرحلة التصويرية:

وهي المرحلة الأولى من مراحل الكتابة وأول أنواعها، وفي هذه المرحلة، كان الإنسان يعبر عمّا يريد قوله عن طريق الرسم، فإذا أراد أن يعبر عن الملك، رسم تاجًا، وهكذا..، (وقد روى هيرودوت مضمون رسالة دوّنت (بالموضوعات) بعثتها قبائل السكّيت إلى داريوس ملك الفرس قبل خوض القتال معه، وقد اشتملت الرسالة على رسم عصفور، وفأر وضفدعة، وخمسة سهام، فقام جوديا مساعد الملك داريوس بتفسير مضمونها أيها الفرس ألم تتواروا في السماء كالعصافير، أو تختبئوا في الجحور كالفئران، أو تقفزوا في الماء كالضفادع، فستغدون هدفًا لسهامنا[12].

2.المرحلة الرمزية:

تكاد ترتبط هذه المرحلة بالمرحلة السابقة، إلا أن الإنسان في هذه المرحلة أصبح يعبر عن المعاني المجردة والأفعال، فأصبحت الشمس مثلًا، تعبر عن النور والنهار والبياض، والتاج صار رمزًا للملك، (والمفاهيم المجردة يعبر عنها رمزيا، فالبرودة رمز لها بالمياه الجارية، وفعل أكل رمز له بإنسان يرفع يده إلى فمه[13] ؛ يقول ول ديورانت: (ولما كانت بعض المعاني مجردة إلى حدّ يصعب معه تصويرها

11 الطايش، علي أحمد، والمريخي، مشلح بن كميخ، الكتابات الاسلامية، دراسة في نشأة الخط العربي وتطوره،، الرياض جامعة الملك سعود، كلية السياحة والآثار، 2006، ص16.

12 يوهانس، فريدريش، تاريخ الكتابة، ص40.

13 ديورانت، ول، قصة الحضارة، ترجمة زكي نجيب محمود، د. ط، الادارة الثقافية في جامعة الدول العربية، 1965، ج 1، م.1، ص107.

تصويرًا حرفيًّا، فقد استعيض عن التصوير بوضع رموز للمعاني، فقد كانت بعض الصور تتخذ بحكم العادة والعرف للتعبير عن الفكرة التي توحي بها، لا عن الشيء المصور.

3.المرحلة الصوتية أو المقطعية:

تعدّ هذه المرحلة مهمة لتأسيس الأبجدية، وقد مرت بمراحل عديدة حتى وصلت إلى الأبجدية؛ إذ اهتدى الإنسان فيها إلى رسم صور وأشكال للدلالة على الكلمات التي يتفق عليها في لغة معينة، (فقد كان الكتاب يقطعون الكلمة الصعبة مقاطع، ويبحثون عن الألفاظ المشابهة لهذه المقاطع نفسها في النطق والمغايرة لها في المعنى، ويرسمون مجموعة الأشياء المادية التي توحي بها أصواتها [14] ، ومثال ذلك كلمة مجلس، فهي تتكون من مقطعين، (مج)، و(لس)، فقد اصطلحوا على وضع إشارات رمزية تدل على هذين المقطعين، بحيث يتم استخدامهما في جميع الكلمات التي يرد بهم هذان المقطعان، ثم عمل الإنسان على تبسيط هذا النوع من الكتابة، فقد عمل على وضع صور تدل على الحروف،)إذ يكفي للتعبير عن الأشياء والأفكار جميعها بعدد محدود من الصور يساوي عدد الحروف الهجائية لكل لغة، فعلى سبيل المثال للدلالة على كلمة " شرب " يرمز للحرف (ش) بالشمس، وإلى الحرف (ر) بالرمح، وإلى الحرف (ب) بالبيت [15]، وهكذا استطاع الإنسان القديم أن يضع حجر الأساس للأبجدية، عبر فترة زمنية استغرقت آلاف السنين .

4.المرحلة الأبجدية:

وهي المرحلة التي تطورت فيها الكتابة من الكتابة بالمقاطع، إلى الكتابة بالحروف؛ بحيث يقابل كل صوت، حرف واحد، ويرجع الفضل إلى الفينيقيين في اختراع هذا النوع من الكتابة، والذين سكنوا بلاد الشام، وقد اكتمل هذا النجاح عندما وضعت جثة احيرام ناووسه في جبيل، حيث استخدم في الكتابة المحفورة على غطائه اثنان وعشرون رمزًا اصطلاحيًّا تقابل اثنين وعشرين حرفًا صحيحًا،

14 المصدر نفسه، ص108.

15 وأبوايه، جانين، إيمار، أندريه، تاريخ حضارات العالم، الشرق واليونان القديمة، ترجمة، فؤاد ج. أبو ريحان، وفريد م. داغر، د. ط، بيروت، منشورات عويدات، ص261.

فكانت هذه الكتابة مصدر الأبجديات التي انتقلت إلى اليونان والإغريق، واعتمدت عليها اللغات السامية كذلك، لتنتقل هذه الأبجدية إلى جميع الحضارات المتوسطة عن طريق الإغريق[16].

أصل الخطّ العربي:

اللغة العربية هي إحدى اللغات الساميّة، والتي سكن أهلها شبه جزيرة العرب بعد تشتت الساميين، الذين انتشروا في أنحاء مختلفة، فنتج عن ذلك انحلال لغتهم السامية إلى عدة لغات[17]، وقد قسم العلماءُ العربيةَ، إلى عربية بائدة، وعربية باقية، فأما البائدة، فلم يبق منها إلا بعض النقوش الصفوية والثمودية واللحيانية[18]، والتي تشير إلى أن تلك الأمم كانت تتكلم العربية، وأمّا الباقية، فهي التي يتكلم بها العرب في العصر الحالي، والتي اختلف العلماء في أصلها، ومكان نشأتها، وعمَّن أخذها العرب؟ وتعددت الآراء في ذلك، ومنها:

1.أن الخطّ العربي توقيف من الله تعالى، علّمه لآدم – عليه السلام – كما باقي الخطوط وقد سبق بيان بطلان هذا الرأي.

2.أنّه مشتق من الخط الحميري (المسند)، وهو خطّ أهل اليمن[19]، انتقل إلى العراق؛ حيث تعلمه أهل الحيرة، ثم تعلمه أهل الأنبار، فنقلته جماعة إلى الحجاز، عن طريق القوافل التجارية والأدبية[20]، وقال الدكتور إبراهيم جمعة ببطلان هذا الرأي؛ إذ إنه لا يستند إلى دليل مادي، وليست هناك علاقة ظاهرة بين خطوط "حمير" في اليمن، والخطّ العربيّ[21]، غير أن نقوش العربية البائدة، والتي كتبت بخط المسند، تخالف هذا الرأي.

16 زيدان، جرجي، الفلسفة اللغوية، ط.1، بيروت، دار الجيل، 1982، ص27، 28.

17 علي، جواد، تاريخ العرب قبل الإسلام، بغداد، مطبعة التفيض، 1950، ج.1، ص199.

18 جمعة إبراهيم، قصة الكتابة العربية، د. ط، دار المعارف، مصر، 1947، ص9 وعلي، جواد، تاريخ العرب قبل الإسلام، ص185.

19 علي، جواد، تاريخ العرب قبل الإسلام، ج1، ص185، وولنفسنون، إسرائيل، تاريخ اللغات السامية، مطبعة الاعتماد، مصر، 1929، ص201.

20 جمعة، إبراهيم، قصة الكتابة العربية، ص9.

21 ابن النديم، الفهرست، ص8، القلقشندي، صبح الأعشى، ج3، ص9.

3.أنّ من وضع الخط العربي، رجل من بني يخلد، يدعى النضر بن كنانة، فكتبت به العرب[22].

4.وكان ابن عباس يقول أن أول من وضع الكتاب العربي إسماعيل – عليه السلام – وصفه على لفظه ومنطقه[23].

5.وقيل أن أول من وضعه نفيسًا ونصرًا وتيمًا ودومة بني إسماعيل، وضعوا كتابًا واحدًا وجعلوه سطرًا واحدًا موصول الحروف[24] .

6.وقيل: إن الكلام العربي بلغة حمير وطسم، وجديس وارم وحويل، فهؤلاء هم العرب العاربة، وأن إسماعيل لما حصل في الحرم ونشأ وكبر، وتزوج في جرهم، الى معاوية بن مضاض الجرهمي، فهم أخوال ولده، فعلم كلامهم[25].

7.وقيل: إن ثلاثة نفر من طيء اجتمعوا ببقعة وهم (مرامر بن مرّة، وأسلم بن سدرة، وعامر بن جدرة)، فوضعوا الخطّ، وقاسوا هجاء العربية على هجاء السريانية، فتعلمه قوم من الأنبار، وعنهم أخذت العرب.

والآراء حول أصل الخطّ العربيّ كثيرة[26].، ولعلّ أقربها إلى الصّواب، هو الرأي الذي أجمع عليه العلماء والمستشرقون والذي يقول: إنّ الخطّ العربي مشتق من الخطّ النبطي، وأن العرب أخذوا الخط العربي عن أبناء عمومتهم الأنباط قبل الإسلام[27]،والأنباط هم قبائل عربية نزحت من الجزيرة

22 ابن فارس، أبو الحسين أحمد، الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها، تحقيق، مصطفى الشويمي، مؤسسة بدران للطباعة

23 والنشر، بيروت، لبنان 1963.

24 المصدر نفسه، ص8.

25 المصدر نفسه، ص7، والقلقشندي، صبح الأعشى، ج.3، ص 8، وابن عبد ربه الاندلسي، أبو عمر أحمد بن محمد، العقد الفريد، ج.4، شرحه وضبطه: أحمد أمين، وأحمد الزين إبراهيم الإبياري، ط.2، دار الكتاب العربي، بيروت، 1962، ص157.

26 ابن النديم، الفهرست، ص7، 8، وابن عبد ربّه، العقد الفريد، ص158، 157 والقلقشندي، صبح الأعشى، ج.3ص8، 9، 10.

27 جمعة، إبراهيم، دراسة في تطور الكتابات الكوفيّة، دار الفكر العربي، القاهرة، 1969، ص17، جواد، علي، تاريخ العرب قبل الإسلام، ص188، ووافي، علي عبد الواحد، فقه اللغة، دراسة اجتماعية تاريخية لغوية لفصيلة اللغات السامية وخاصة اللغة العربية، ط.2، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1944، ص80.

العربية وسكنوا في المناطق الآرامية في فلسطين وجنوب بلاد الشام والأردن[28]، ويؤيد هذا الرأي الدكتور جواد علي؛ حيث يقول: إن أغلب حروف وأشكال الخط العربي مشابهة لحروف الخطّ النبطي المتأخر وأشكاله، كما أيده في ذلك الدكتور إبراهيم جمعة[29]، ولعله أكثر رأي يركن إلى دليل ماديّ؛ حيث يستند العلماء الذين قالوا به، إلى النقوش النبطية التي كشفت الصلة بين الخط العربي والنبطي، وهذه النقوش مختصرة:

1.نقش النمارة:

وقد عثر على هذا النقش في منطقة النمارة، وهي قصر صغير للروم، قرب دمشق، وهو يشير إلى قبر امرئ القيس بن عمرو، من ملوك الحيرة، وقد دوّن بالرسم النبطي المتصل الحرف، والرسم النبطي هو أحد أنواع الرسم الآرامي[30]، ومنه اشْتُقَّ الرسم العربيّ[31]، ومن مميزاته ارتباط بعض حروفه ببعض، وكتابة بعض الحروف في نهاية الكلمة بشكل يختلف عن رسم الحروف التي من نوعها المستعملة في أوائل الكلمة أو أواسطها[32]، وتعد هذه الكتابة أول كتابة وأقدم كتابة عثر عليها حتى الآن مدونة باللهجة العربية الشمالية القريبة من لهجة القرآن وإن كتبت بالخط النبطي المتأخر[33]، وهذا ممّا يؤكد ارتباط الخط النبطي بالخط العربي، الذي تختلف فيه بعض الحروف، في أول الكلمة منها في آخر الكلمة والقريب من خطّ القرآن الكريم.

28 الجبوري، كامل سليمان، أصول الخط العربي، ط.1، دار ومكتبة الهلال، بيروت، لبنان، 2000، ص18..

29 جمعة، إبراهيم، دراسة في تطور الكتابات الكوفية، ص17، علي، جواد، تاريخ العرب قبل الإسلام، ص188.

30 القيسي، ناهض عبد الرزاق، تاريخ الخطّ العربي، ط1، دار المناهج للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، 2008، ص13.

31 علي، جواد، تاريخ العرب قبل الإسلام، ج1، ص189.

32 المصدر نفسه، ج1، ص190.

33 المصدر نفسه، ج1، ص189.

2.نقش أم الجمال:

عثر عليه جنوب حوران، شرق الأردن، ويوجد في هذه الكتابة حروف غير مرتبطة، وحروف مشابهة لحروف الخط الكوفي، وكتبت بالآرامية، ووجد فيها أسماء عربية، وقد كانت تستعمل القبائل العربية الشمالية، الآرامية في الكتابة[34].

3.نقش زبد:

وكتب بثلاث لغات، اليونانية والسريانية، والعربية، وعثر عليها بين قنسرين ونهر الفرات[35]، وكان النص العربي فيه لا يخلو من الأثر الآرامي[36].

4.نقش حران:

عثر عليه في حران اللجا، في المنطقة الشمالية من جبل الدروز، ومدون باليونانية والعربية[37].

وبناءً على تلك النقوش التي وجدت، اتفق أغلب العلماء والمستشرقون على صواب الرأي الأخير، غير أنّه لا يمكن إهمال الرأي الذي يقول بأن الخطّ العربي مشتق من الخطّ المسند، بدليل وجود نقوش العربية البائدة، التي تثبت الصلة بين الخط المسند والخطّ العربي، وقد حاول حسان صبحي مراد، الباحث في تاريخ الخطّ العربي، الجمع بين الرأيين؛ حيث إن الخطّ المسند غير بعيد الشبه عن الخط الآرامي، وأن لغة المسند تأثرت باللغة الآرامية، وأن أبجديتنا العربية ترتبط بأبجدية العرب الأصلية وهي المسند، فكيف الجمع بين الرأيين؟

إن النبّط هم قوم عرب، تأثروا بالخط المسند، وبخط الآرام، ثم اشتقوا من الخط الآرامي خطًّا جديدًا سمي بالخطّ النبطي[38]، وبهذا يحل الخلاف القائم حول أصل الخطّ العربي، غير أنّ حسان صبحي مراد، يعود ليرى أن أصل الخطّ العربي هو المسند[39].

34 ولنفسنون، إسرائيل، تاريخ اللغات السامية، ص191.

35 علي، جواد، تاريخ العرب قبل الإسلام، ج1، ص190.

36 المصدر نفسه، ص190

37 مراد، حسان صبحي، تاريخ الخط العربي بين الماضي والحاضر، ط1، الدار الجماهيرية، لبنان، 2003، ص35.

38 المصدر نفسه، ص35.

39 الأسد، ناصر الدين، مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية، ط4، دار المعارف، مصر، 1969، ص44، 45.

الكتابة العربية في ظلّ الجاهلية:

اختلف المؤرخون، هل كان العرب يعرفون الكتابة أم لا، فمنهم من فهم لفظ الجاهلية، فهمًا ضيقًا، وأجحف في حقّها، فقالوا: إنّ العرب لم تعرف الكتابة، ولا القراءة، ولا العلوم، وغاب عن أذهانهم أن لفظ الجاهلية أطلق عليهم من منظور دينيّ، حيث الجهل بتوحيد الله والإيمان بالله، والجهل بالديانات السّماوية، فالأمّية التي وسمها بهم القرآن الكريم أُمَّية في الدين[40] ، وإلا، فإن العرب كان لديها من العلوم، بمقدار لا بأس فيه، وفي شأن الكتابة يقول الدكتور عمر فروخ: (ومع أنّ عرب الجاهلية لم يكونوا أهل كتابة، فإنّ الكتابة عندهم لم تكن نادرة كما يميل بعضهم، لقد كان العرب يكتبون بينهم العقود والمواثيق، ويكتبون الرسائل في بعض الأحوال، ويبدو أن الشعراء كانوا يدونون أشعارهم أيضًا، ومع أنّ الكتابة معروفة في الجاهلية، فإنها لم تكن مألوفة، وخصوصًا في البادية[41]، ولعلّ السبب في هذا، ما فرضته طبيعة الحياة الجاهلية، من تنقل وترحال، واشتغال بالتجارة.

وجاء القرآن يحاكي العرب بما يفهمونه ويعرفونه، فذكر القلم والكتاب، والألواح، وما كان الله ليخاطب قومًا بشيء لا يعرفونه، فقال تعالى مخاطبًا نبيه – عليه الصلاة والسلام – ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾]العلق: 1]، وقال تعالى :﴿ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾]الفرقان: 5]؛ يقول الدكتور ناصر الدين الأسد في هذه الآية: (تُبين عن أنّ بعض الجاهليين كانوا يدوّنون الأخبار والقصص والتاريخ، وأنّ هناك من كان يملي هذه الموضوعات[42].

والآيات التي تدلل على هذا كثيرة في القرآن الكريم، ولما جاء الإسلام كان في قريش سبعة عشر رجلًا كلهم يكتب، وكانت الشفاء بنت عبدالله العدوية تحسن الكتابة، وكان في المدينة يهوديّ من يهود ماسكة قد علمها، فكان يعلمها الصبيان، فجاء الإسلام وفي المدينة بضعة عشر يكتبون، منهم سعيد بن زرارة، والمنذر بن عمرو، وأبيّ بن كعب، وزيد بن ثابت، ورافع بن مالك، وأسيد بن حُضير، ومعن بن عديّ، وأبو عبس بن كثير، وأوس بن خوليّ، وبشير بن سعد[43].

40 علي، جواد، تاريخ العرب قبل الإسلام، ج1، ص15.

41 فروخ، عمر، تاريخ الأدب العربي، ج1، ط6، دار العلم للملايين، بيروت، 1992، ص38.

42 القلقشندي، صبح الأعشى، ج3، ص11.

43 الأسد، ناصر الدين، مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية، ص52.

يروى أنّ في الجاهلية معلمين، يعلمون الناس القراءة والكتابة، وضروبًا من العلم، وقامت في مكة والمدينة، والطائف والحيرة والأنبار وغيرها، وغيرها– مدارس يتعم فيها الصبيان الكتابة العربية[44]، ولعل عديّ بن زيد العبادي، يعدّ شاهدًا على هذا، إذ تعلم في الكتاب الخطّ العربي، ثم الخطّ الفارسي[45] .

الكتابة العربية في ظلّ الإسلام:

حظيت الكتابة في ظلّ الإسلام باهتمام كبير؛ إذ كانت ركيزة أساسية من ركائز الدعوة الإسلامية، ووسيلة هامّة في حفظ الوحي، والدعوة إلى توحيد الله، فجاء القرآن معظِّمًا لشأنها والعلم، رافعًا من قدرها، فأول آية نزلت على رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وكان رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وهو أذكى البشر، وأفصح العرب، وقائد الأمّة، مدركًا لأهمية العلم والتعلّم، ولدور الكتابة في الحياة السياسية، والدينية، والثقافية، فقد روي أنّ له – صلى الله عليه وسلم – كتَبَةَ، يكتبون الوحي الذي أنزل عليه، (منهم الخلفاء الأربعة، ومعاوية، وأبان بن سعيد، وخالد بن الوليد، وأبيّ بن كعب، وزيد بن ثابت وثابت بن قيس، وحنظلة بن الربيع وغيرهم، فكان النبي – صلى الله عليه وسلم – إذا أنزل عليه شيء يدعو أحد كتّابه هؤلاء، ويأمره بكتابة ما نزل عليه ولو كان كلمة...، وكان الصحابة يكتبون القرآن فيما يتيسر لهم حتى في العظام، والرقاع، وجريد النخل، ورقيق الحجارة، ونحو ذلك[46].

فأول آية نزلت على رسول الله – صلى الله عليه وسلم – كانت :﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾ [47]، وجاء حاضًّا على تدوين الأمور المهمة، كتوثيق المعاملات، حفظًا لحقوق العباد، قال تعالى : [48]﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ ﴾

44 انظر، المصدر نفسه، 54.

45 الزرقاني، محمد عبدالعظيم، مناهل العرفان في علوم القرآن، م1، ط3، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

46 العلق: 1

47 البقرة: 282

48 المصدر نفسه، ص357.

وفي غزوة بدر، كان رسول الله يطلق سراح الأسير في بدر إذا علّم عشرة من صبيان المسلمين في الكتابة، حتى قيل: إن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – عرف القراءة والكتابة في آخر عمره[49]، واهتم أيضًا بتعلم النساء، فأمر الشفاء بنت عبدالله العدويّة أن تعلم زوجته حفصة القراءة والكتابة[50]، وغدت الكتابة وسيلة مهمة من وسائل الحكم، كما بدا ذلك في رسائل الرسول – صلى الله عليه وسلم – إلى الملوك يدعوهم إلى الإسلام[51]، واتسعت رقعة البلاد الإسلامية في عهد الخلفاء الراشدين، وأصبحت الحاجة ضرورية للمكاتبات والمراسلات في شؤون الدولة، واشتهر ذلك في عهد الخليفة عمر بن الخطّاب[52]، وكتب التاريخ مليئة برسائل عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – إلى أمراء الأمصار الإسلامية، فازدادت الحاجة إلى الكتابة، كوسيلة لنشر القرآن الكريم، وكوسيلة لحفظ كتاب الله – عز وجل – الإسلامية، فأمر الخليفة عثمان بن عفان، بنسخ القرآن الكريم وضبطه، وجمعه في مصحف واحد، وكتب المصحف في زمن عثمان بالرسم النبطي في كثير من صور الكلمات، ثم كان التطور في كتابة المصاحف بخطوط مختلفة[53]، وأرسل عثمان – رضي الله عنه – منه نسخًا إلى الأمصار الإسلامية، وفي عهده ظهرت الكتابة على النقود الساسانية، حيث حملت(بسم الله) و(بركة) و(محمد)، وانتشرت الكتابة العربية انتشارًا قويًّا ومؤثرًا على كتابة اللغات الأخرى؛ كالإيرانية والهندية، وفي أنحاء كثيرة من العالم[54]، وأخذ الخط العربيّ يتطور في الكوفة، والتي أصبحت مركزًا لتطوره، في عهد الخليفة علي بن أبي طالب عندما نقل الخلافة إلى الكوفة، وعرف بالخط الكوفي؛ حيث كانت تنسب الخطوط إلى المكان التي توجد فيه، مثل الخط المدني والمكي والبصري[55].

49 الجبوري، محمود شكر، دار الأمل للنشر والتوزيع، اربد، الأردن، 1998، ص40.

50 القيسي، ناهض عبدالرازق، تاريخ الخط العربي ص40.

51 الزرقاني، مناهل العرفان في علوم القرآن، ص23.

52 جمعة، إبراهيم، قصة الكتابة العربية، ص35.

53 المصدر نفسه، ص25، 26، 27.

54 القيسي، تاريخ الخط العربي، ص47، 48.

55 جمعة، إبراهيم، قصة الكتابة العربية، ص49، 50.

ولما اختلط العرب بالأعاجم، وذاع سيط الإسلام، ودخل به الكثير من غير العرب، ظهر اللحن في اللغة العربية، وخشى العلماء أن يطول هذا الفسادُ القرآن الكريم، فعمدوا إلى ضبط اللغة العربية، نحوًا وكتابةً، بتشكيل آخر الكلمات، وأول من قام بهذا، هو أبو الأسود الدؤلي بتكليف من زياد أمير العراق حوالي 67هـ، واستعان الدؤلي في ذلك بعلامات كانت عند السريان يدلون بها على الرفع والنصب والجرّ، ويميزون بها بين الاسم والفعل والحرف[56]، ثم عمدوا إلى ضبط الحروف العربية، عن طريق الشكل والتنقيط، ليزول الالتباس بين الحروف المتشابهة، كالدال والذال، بوضع نقطة على الذال، فكان هذا أول إصلاح أجري على اللغة العربية، ليأتي الإصلاح الثاني في زمن الخليفة عبدالملك بن مروان، عندما قام يحي بن يعمر ونصر بن عاصم بوضع الإعجام – أي: النقط – فكان الاختلاف بين الشكل الذي وضعه الدؤلي، والشكل الذي وضعه يحي بن يعمر، ونصر بن عاصم، فقام الخليل بن أحمد الفراهيدي في العصر العباسي بالإصلاح الثالث؛ حيث قام بإبدال النقط التي وضعها أبو الأسود الدؤلي للدلالة على الحركات الإعرابية بجرات علوية وسفلية للدلالة على الفتح والكسر، وبرأس واو للدلالة على الضمّ، واصطلح على أن يكون السكون الخفيف (الذي لا إدغام فيه) رأس خاء أو دائرة صغيرة، وللهمرة رأس عين (ء)، وغيرها من الإصلاحات.

الكتابة في العصر الأموي:

وإذا انتقلنا إلى عصر بني أمية وجدنا الكتاب ترقى رقيا عظيما، فقد جد كثير من المشكلات، وتعقدت الحياة من الجميع أطرافها المادية والسياسية والعقلية، إذ تحضر العرب، وأخذوا يستعيرون كثيرًا من النظم الأجنبية، ومواد الثقافات لدى الأمم المفتوحة.

ونستطيع أن نميز ثلاثة جداول مهمة كانت تمد الحياة العربية في العصر الأموي، وهي جدول جاهلي يتمثل في الشعر والأيام، وتقاليد الجاهليين، وأقبل كثير من العلماء على هذا الجدول يعبون منه، مما هيأ لتسجيل الحياة الجاهلية، وجدول إسلامي يتمثل في تاريخ الإسلام وخطوبه، وسيرة الرسول صلى الله عليه وسلم وغزاوته وأحاديثه، وسيرة الخلفاء الراشدين وفتوحاتهم، ثم ما كان من

56 المصدر نفسه، ص 51، 52، 53.

أحزاب سياسية، وما لكل حزب من آراء في السياسة والحكم، وجدول أجنبي يتمثل في معرفة شئون الأمم المفتوحة، ونظمها السياسية والاجتماعية والاستعارة منها حسب الحاجة، ولعل أول ما كان من هذه الاستعارة اتخاذ عمر لديون العطاء، أو ديوان الجيش [57] ، وقد خلفه جيل كانت استعارته أقوى وأكبر، ونستطيع أن نرمز لصنيع هذا الجيل بما كان من اتخاذ، معاوية لدواوين الخراج والخاتم والرسل[58] ، ثم بما كان من تأليف زياد بن أبيه لكتاب في المثالب. [59]

وكلما مضينا في العصر اتسعت التأثرات، بما لدى الأجانب، فقد كان العرب ناشرين للدين الإسلامي، وقد اتصلوا بيهود ومجوس ونصارى، وحدثت بينهم وبين هؤلاء جميعا أحاديث ومناقشات، ومحاورات تسرب إليهم في أثنائها كثير من الفكر الأجنبي، وخاصة من شعب الفكر اليوناني في الفلسفة والمنطق، وقد أخذوا يقفون على طرق استغلال الأرض، وغير ذلك من مسائل الحياة العملية، وعاشوا في القصور، وقام الأجانب على خدمتهم، وتهيئة حياتهم المادية، واطلعوا على نظم التعليم عندهم، وما أنشأوا من مدارس، وطلب خالد بن يزيد بن معاوية أن تترجم كتب في الكيمياء[60] ، وأمر عمر بن عبد العزيز بترجمه كتيب في الطب. [61]

ومعنى ذلك كله أن الكتابة نمت في العصر الأموي نموا واسعا، فقد عرف العرب فكرة الكتاب، وأنه صحف يجمع بعضها إلى بعض في موضوع من الموضوعات، وقد ألفوا فعلا كتبا كثيرة، بعضها ديني خالص يتصل بمسائل الفقه والتشريع الإسلامي، بمن ذلك أننا نجد الرواة ينسبون إلى هشام بن عروة بن الزبير أنه قال: "أحرق أبي يوم الحرة كتب فقه كانت له" ونعرف أنه موقعة الحرة كانت لعهد يزيد بن معاوية، وقد ترك زيد بن علي مؤسس مذهب اليزيدية مختصرًا في الفقه[62] ، ومر بنا أن المحدثين طوال القرن الأول للهجرة كانوا يختلفون فيما بينهم، منهم من يكتفي برواية الحديث،

57 الوزراء والكتاب للجهشياري "طبعة الحلبي" ص17.

58 نفس المصدر ص24

59 الفهرست لابن النديم "طبعة مصر" ص131.

60 الفهرست ص338.

61 تاريخ الحكماء "مختصر الزوزني" طبع ليبزج ص324.

62 طبقات ابن سعد 5/ 133.

ومنهم من يدونه، حتى إذا وصلنا إلى رأس المائة أمر عمر بن عبد العزيز بتدوينه تدوينا عاما، ومن أوائل من بادروا جمعه ابن شهاب الزهري[63] المتوفى سنة 124 للهجرة.

وقد نشطت الكتابة التاريخية، فكتب المؤرخون في معازي الرسول عليه السلام، وعلى رأسهم أبان بن عثمان[64] ، وعرف بن الزبير، وهو أول من صنف في تلك المغازي [65]، ثم الزهري، وكلهم من المدينة، وهذا طبيعي فهي دار النبوة، وبيت السيرة الذكية، وقد أخذ بعض هؤلاء المؤرخين يتحدثون عن الخلفاء الراشدين والأمويين.

وبجانب مؤرخي السيرة النبوية نجد مؤرخين من اليمن يهتمون بتاريخ موطنهم، وفي مقدمتهم عبيد بن شرية الجرهمي الذي وفد على معاوية، وأدرك خلافة عبد الملك بن مروان، وهو صاحب "كتاب الملوك، وأخبار الماضين"[66] ألفه لمعاية، وطبع حديثا في الهند باسم "أخبار عبيد بن شرية الجرهمي في أخبار اليمن وأشعارها وأنسابها"، ومن يطلع عليه يجد الخرافة تغلب على أخباره، وتشتهر في هذا العصر بقصاصها مثل تميم الداري، وأشهرهم وهب بن منبه الذي توفي سنة 114 للهجرة، وقد كتب كثيرًا عن عرب الجنوب كما كتب عن مغازي الرسول، وأهم من ذلك أنه عني بجمع أخبار أهل الكتاب، وما يتصل بها من الإسرائيليات[67] ، وهو مثل عبيد في ملء كتاباته التاريخية بالخرافات، كما يلاحظ ذلك كل من يقرأ في الكتاب المنسوب إليه المسمى "كتاب التيجان في ملوك حمير."

ونحن لا نصل إلى أواخر هذا العصر حتى نجد العراق تعني بهذه المادة التاريخية جميعها، كما تعني بتاريخ القبائل الشمالية، وأنسابها وأيامها، وأيضا فإنها عنيت بتاريخ الأحداث في عصر علي بن أبي طالب، ثم في عصر بني أمية، وكان مما زاد في هذه العناية، وخاصة بتاريخ العرب في الجاهلية، وأيامهم وملوكهم وأمرائهم وشعرائهم، وخطبائهم قيام علم اللغة، وتوفر أصحابه على دراسة أحوال

63 الزرقاني على موطأ "طبع المطبعة الخيرية" 1/ 10.

64 طبقات ابن سعد 5/ 112.

65 كشف الظنون "الطبعة القديمة" 5/ 646.

66 الفهرست ص132.

67 كشف الظنون 5/ 40.

الجاهليين، ولا نلبث أن نجد مؤرخا كبيرا في أبو مخنف [68] يعنى بتأليف كتب كثيرة يقال: إنها بلغت اثنين وثلاثين كتابا، وأكثرهم يتحدث فيه عن أحداث القرن الأول للهجرة، واحتفظ الطبري بكثير مما كتبه في تلك الأحداث.

ولعل من الطريف أن نلاحظ أن هذه النزعة لكتابه التاريخ عند العرب ظهرت في ظروف مشبهة لظهورها عند اليونان، فإن من المعروف أن اليونان لم يعنوا بكتابة تاريخهم إلا بعد حروبهم مع الأمم الأجنبية وفتوحهم، وينبغي أن نعرف أن هذا النثر التاريخي عند العرب نثر عربي خالص، فهم لم يستعيروه من الأجانب، بل مثلهم فيه مثل اليونان الأقدمين في نثرهم، ونشأته في حجورهم.

وليس معنى ذلك أن الكتابة التاريخية عند العرب لم تتأثر بعناصر أجنبية في هذا العصر المبكر، بل لقد أخذت تتأثر بهذه العناصر، كما مر بنا عند وهب بن منبه وأضرابه ممن كانوا يتحدثون عن الملوك الأوائل، وعن قصص الأنبياء وأخبار شعوبهم، غير أن هذه العناصر لم توجد هذه الكتابة من عدم، بل لقد وقف تأثيرها عند تنميتها، والتطور بها مع الزمن، كان موضوعها في كثير من جوانبها عربيا خالصا يتصل بسيرة الرسول، وأحداث الإسلام أو يتصل بأيام العرب في الجاهلية وأخبار قبائلهم وملوكهم، وكلما تقدمنا في الزمن اتسعت هذه العناصر الأجنبية، فشملت تاريخ الفرس، وتاريخ الأمم المفتوحة.

وإذا تركنا الكتابة التاريخية إلى الرسائل، وجدناها مثل الخطابة التي عاصرتها، فقد كانت هناك رسائل سياسية تصدر عن دواوين الخلفاء والولاة، أو عن خصومهم، ورسائل اجتماعية يتبادلها الناس في أمور حياتهم الشخصية، ورسائل دينية، منها ما يأخذ شكل الموعظة، ومنها ما يأخذ شكل الحوار والجدل، حين يتعرض شخص للرد على صاحب نحلة من النحل.

وقد نهضت الرسائل السياسية في هذا العصر نهضة واسعة، وهي نهضة ترد إلى سببين: أما السبب الأول فهو كثيرا ممن كانوا يكتبونها يعدون في الذروة من الفصاحة، والبيان لهذا العصر أمثال زياد والحجاج، وقطري بن الفجاءة والمختار الثقفي، وأما السبب الثاني فقيام ديوان الرسائل، وظهور طبقة من الكتاب المحترفين في هذا الديوان، لا في دواوين الخلفاء وحدهم، بل أيضا في دواوين

68 معجم الأدباء "طبعة القاهرة" 7/ 41.

الولاة، وكان قادة الجيوش أيضا يتخذونهم، ليراسلوا عنهم من يريدون مراسلته، ومعروف أن ديوان الخراج كان يقوم عليه في أول الأمر كتاب من الأجانب، يكتبون فيه بلغاتهم الأصلية، حتى إذا كان عصر عبد الملك نقل هذا الديوان إلى العربية، فأصبح الشأن فيه كالشأن في ديوان الرسائل يليه العرب، ولم يلبث الأجانب أن سعوا إلى تعلم العربية، وشاركوا في ديوان الرسائل نفسه.

ويقدم لنا كتاب الوزراء، والكتاب للجهشياري أثباتا طويلة بأسماء من كانوا يلون الديوانين: ديوان الرسائل وديوان الخراج، وهي أثبات تدل دلالة قاطعة على أن من نهضوا بالكتابة السياسية في هذا العصر إنما هم العرب، وظلوا على ذلك طويلا، حتى أوشك القرن الأول للهجرة على الزوال، فشاركهم الأجانب مشاركة بدت قاصرة في أول الأمر، حتى إذا كان عصر هشام بن عبد الملك "104-124هـ"، وجدنا على ديوانه مولى كان يحسن اليونانية، وينقل عنها بعض رسائل وهو سالم، الذي تخرج على يديه عبد الحميد الكاتب الفارسي الأصل.

ومعنى ذلك أن كتابة الرسائل السياسية الرسمية نشأت في حجر العرب، ونمت تحت أيديهم، فقد أخذت في الظهور منذ صدر الإسلام، ومنذ أن جدت تلك المشكلات التي اقتضت أن يكتب فيها الرسول صلى الله عليه وسلم وخلفاؤه، وبمضي الزمن أخذت مشاكل الدولة في التعقد، كما أخذ العقل العرب ينمو ويرقى، فنمت ورقيت معه تلك الصناعة، وتوفر عليها جماعة من بلغاء الخطباء، كما توفرت عليها جماعة من الكتاب المحترفين الذين توظفهم الدولة للعناية بها، وحقا يقال: إن العرب استعاروا نظم الدواوين من لدن الفرس [69] -

ولكن الفرس مثلهم مثل غيرهم من الموالي لم يوجدوا لهم هذا الفن من كتابة الرسائل السياسية، إنما أوجدته حياتهم وضروراتها السياسية والإدارية، ومن هنا كنا نرفض رفضا باتا رأي بعض المستشرقين الذين يزعمون أن العرب استعاروا كتابتهم السياسية الفنية، أو نثرهم السياسي الفني من لدن الفرس[70] ، فالعرب لم يستعيروا من الفرس، ولا من غيرهم نثرهم كما أنهم لم يستعيروا منهم، ولا من غيرهم شعرهم، وكل ما يمكن أن يلاحظ أنهم أخذوا مع الزمن يتأثرون في نثرهم وشعرهم جميعا

69 الوزراء والكتاب للجهشياري ص2

70 النثر الفني لزكي مبارك 1/ 34، 1/ 43،1927 ,

بالأجانب من الفرس وغير الفرس، وتم ذلك بحكم التطور واشتراك هؤلاء الأجانب معهم في أدبهم، وما كان من نقل ثقافاتهم إلى العربية.

ونحن لا نغلو الذي جعل بعض المعاصرين يذهب إلى أن العرب عرفوا الكتابة الفنية، أو النثر الفني منذ العصر الجاهلي[71] ، فما تحت أيدينا من وثائق ونصوص حسية لا يؤيد ذلك إلا إذا اعتمدنا على الفرض والظن، والحق أن ما تحت أيدينا من النصوص الوثيقة يجعلنا نقف في مرحلة وسطى بين الرأيين، فلا نتأخر بنشأة الكتابة الفنية عند العرب إلى العصر العباسي عصر التأثر الواضح بالفرس، لا نتقدم بها إلى العصر الجاهلي، بل نضعها في مكانها الصحيح الذي تؤيده المستندات والوثائق، وهو العصر الإسلامي، حيث أخذت في الظهور منذ صدره، كما أخذت في النمو والازدهار كلما تقدمنا مع الزمن، وإذا كان للفرس أو لغيرهم من الموالي فيها من فضل، فهو فضل المشاركة في النمو بها، بالضبط على نحو ما صنعوا بالشعر في العصر العباسي، ولعل من المهم أن نعرف فأن العرب لم يأخذوا عن الفرس فلسفة، ولا نحتا ولا تصويرا، ولا شعرا ولا أي فن من الفنون.

وعلى نحو ما نشأت الكتابة السياسية الرسمية، ونمت نشأت الكتابة الاجتماعية، أو الشخصية وأخذت في النمو منذ عصر الفتوح، فإن تفرق العرب في البلدان الإسلامية دفعهم دفعا إلى أن يتكاتبوا في مهامهم، وشئونهم الشخصية وفي التهاني والتعزية وفي العظة والعبرة[72] ، ومن غير شك كثر ذلك مع مر الزمن، وإن كانت الكتب الأدبية، والتاريخية لم تعن بتلك المكاتبات قدر عنايتها وبالوسائل السياسية؛ لأنها في الغالب لا يتعلق بها تاريخ، وأيضا فإن أصحابها لم يكونوا يقرءونها في الناس، ولا كانوا يسجلونها، ومع ذلك نجد آثارا منها، يرجع بعضها إلى صدر الإسلام، وبعض آخر يرجع إلى عصر بني أمية، وربما كان أبرز كتابها عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر.

71 النثر الفني 1/ 33-43.

72 انظر رسالتين متبادلتين الصحابيين: أبي الدرداء، وسلمان الفارسي في العقد الفريد 3/ 150

أما الكتابة الدينية:

فقد أصابها ما أصاب الخطابة الدينية من الرقي والازدهار، لسبب بسيط، وهو أن كتابها كانوا هم أنفسهم الذين مرنوا على الخطابة والجدال، والحوار في المسائل الدينية والمذهبية، فأضفوا على كتابتهم نفس الصورة البيانية التي أضفوها على خطابتهم، مما نجده ماثلا في كتابات الحسن البصري، وغيلان الدمشقي وغيرهما من الوعاظ، وأصحاب النحل الذين نهضوا بتمرين اللغة العربية على كثير من المعاني الدقيقة موازيين بين معانيهم، وبين ألفاظهم، وما تحتاجه لتأثيرها على وجدان السامع، والقارئ من حلاوة وعذوبة.

أنواع الخطوط العربية:

ازدهرت الحضارة الإسلامية واتسعت رقعتها، وارتفع شأن الكتابة، حتى قُرّب الكتاب من الخلفاء، وصارت الكتابة حرفة، ومهنة شريفة، يمارسها البعض، وأصبح الخطّ العربي عنصرًا مهمًّا من عناصر الزخرفة الإسلامية، كما تشهد المعالم الإسلامية في سوريه وفلسطين، والأندلس، على هذا [73]، وابتعد الفنانون عن الرسوم الآدمية والحيوانية، وانكفأ الفنانون على الخطّ العربي، يجودونه، ويزخرفونه، وأصبح الخطّ العربي علمًا له أسسه وقواعده، وأنشئت له مدارس خاصة تعنى بتطويره، مثل المدرسة العراقية، والمدرسة المصرية، والمدرسة التركية، والفارسية[74] ، وكان الخط العربي في بدايته، ينسب إلى المكان الذي وجد فيه كما تقدم، كالمكي، والبصري والحيرة والأنباري، ويرى الدكتور إبراهيم جمعة، أنه لا اختلاف بين هذه الخطوط في مراحلها الأولى، ورجح أن يكون الاختلاف اختلاف تجويد اختلاف خصائص [75]، ليتميز بعدها كل خطّ بخصائص تميزه عن الآخر، معتمدين في ذلك على هندسة الحروف بطرائق مختلفة وأذواق مختلفة، ومن أهم الخطوط العربية [76]:

73 القيسي، تاريخ الخط العربي، ص93، 94، 95، 96، 97، 98.

74 جمعة، إبراهيم، قصة الكتابة العربية، ص71.

75 المصدر نفسه، ص21.

76 جمعة، إبراهيم، دراسة في تطور الكتابات الكوفية، ص45، 46.

1 .الخط الكوفيّ:

ظهر بالكوفة، وكانت بدايته في عهد الخليفة عليّ بن أبي طالب، وينقسم إلى عدة أقسام:

أ- الخط الكوفي البسيط: شاع في القرون الهجرية الأولى، وهو خالٍ من التوريق والتخميل والتوريق، ومادته كتابية بحت، ومن أشهر أمثلته، ما كتب على قبة الصخرة في القدس الشريف.

ب- الخط الكوفي المورق: تلحقه زخارف تشبه أوراق الشجر.

ج- الكوفي ذو الأرضية النباتية (المخمل): تستقر فيه الكتابة فوق أرضية من سيقان النبات اللولبية وأوراقه، وأشهر أمثلته في إيران.

د-الكوفي المضفر (المعقد): وهو نوع من الزخارف التي بولغ في تعقيدها، إلى حد يصعب فيه أحيانًا التمييز بين العناصر الخطية والزخرفية.

هـ-الخط الكوفي الهندسي: يتميز بأنه شديد الاستقامة، قائم الزوايا، أساسه هندسي بحث، ونشأنه غامضة.

2 .الخط النسخي:

سميّ بالبديع والمقور، والمدوّر، والمحقق، واستخدم في المراسلات والمعاملات التجارية، واستنساخ الكتب، وبه زيد بن ثابت – رضي الله عنه – بعض رسائل الرسول – صلى الله عليه وسلم – بالخطّ المقور، ومنه الخط اللين المدور الذي كتب به نقش حران، وأشهر الكتاب في هذا الخط، الضحاك بن عجلان واسحق بن حماد، وازدهر هذا النوع من الخط في عصر الخليفة المأمون ومن الخط النسخي كذلك، خط الثلث ظهر في أواخر الدولة الأموية، على يد قطبة المحرر، وطوّره الخطاط إبراهيم الشجري، وهو على عدة أنواع، ومنه خط الطومار، والتعليق، والرقعة، الذي يميل إلى البساطة والجمال، والبعد عن التعقيد، وشاع استخدامه خلال حكم الدولة العثمانية، ومن الخط النسخي كذلك، اخط الديواني، وكان يكتب فيه قرارات الدولة العثمانية وبلاغاتها وكتبها الرسمية، وتتميز حروفه بأنها ملتوية، وكذلك خط الطغراء، وخطّ الإجازة . [77]

[77] القيسي، تاريخ الخط العربي، ص93، 94، 95، 96، 97، 98.